الفصل السادس

آسيا الغربية : الأشوريون والكلدانيون
بلاد أشور القديمة ومنافسوها الغربيون

يحملنا الفصل الثانى من تاريخ بلاد الرافدين إلى أعلى النهر ، فنترك بابل ونذهب إلى الزاوية الشمالية الشرقية من تلك الصحراء التى تحيط بالهلال الخصيب ، فنجد هناك مرتفعا من الأرض يسهل الدفاع عنه . ذا موقع منيع لايتيسر للمدن التى تحيط بها الأرض المسطحة فى سهل شنعار .

تلك هى المنطقة التى يحدها نهر دجلة فى الشرق . وتشرف على الصحراء فى الغرب والجنوب ، وكان اسمها أشور Assur ومن ثم أصبح اسم المملكة كلها أرض أشور Assyria فيما بعد .

ونظرا لوقوع أشور فى منطقة جبلية مرتفعة فإنها كانت تتمتع بجو أصح من جو بلاد بابل الحار . وكان فيها أودية خصبة التربة تمتد بين ثنايا الجبال الشرقية والشمالية حيث كانت توجد بعض مدن تتنافس فيما بينها . وفى هذه المنطقة نرى مرتفعات جبلية كانت محاجر صالحة لقطع الحجر الجيرى والمرمر وغيرها من الأحجار الصلدة ، وفى هذا الأمر اختلفت أشور كثيرا عن بابل التى لم يكن بها أحجار للبناء ولهذا اقتصرت فى عمارتها على البناء بالطوب اللبن .

كانت تلك الأودية الشرقية خضراء بما فيها من المراعى وحقول القمح والشعير ، وكانت قطعان الماشية والضأن والماعز تنتشر على جوانب التلال ، وكانت الحمير هى الحيوانات الأساسية لحمل الأثقال والانتقال من مكان إلى آخر ، لأن الحصان لم يكن قد عرف فى ذلك الوقت ، وهنا ـ فى هذه المنطقة ـ عاش السكان على الزراعة وتطورت حياتهم فى ظلالها ، ولكن لم يمنع ذلك سكان بلاد أشور من أن ينشئوا

قبل وقت طويل بعض الصناعات ويؤسسوا الصلات التجارية .

لم يكن سكان هذه المنطقة الواقعة إلى الشمال من بلاد بابل من الأصل السامى جميعا بل كان يعيش بينهم أقوام يتكلمون لغات غير سامية ومن أجناس غير سامية فى الألف الثالث قبل الميلاد كان يعيش فى المكان الذى تقوم فيه مدينة أشور بلدة سومرية عثر على آثار أهلها هناك ، وفى الوقت عينه كان أجداد القوم الذين يسمون الأشوريين يعيشون أيضاً فى تلك المنطقة ولكننا لا نعرف من أين جاءوا ولا نعرف إن كانوا من الجنس السامى أو من جنس غيره ، ولكننا نعرف أنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم لغة سامية قريبة من اللغة التى كان يتكلمها أهل أكد حيث قامت أول مملكة سامية قوية فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد بقيادة الملك سرجون .

وبدأت أشور كغيرها من جاراتها السامية فى الجنوب دويلة مستقلة وكانت متأثرة بالحضارة السومرية ، واتصلت بغيرها من مدن السومريين ، وكتبوا لغتهم بالكتابة المسمارية ، كما أثرت بلاد سهل بابل على سكان أشور فى فنون النحت والعمارة .

نرى من ذلك أن أكثر مظاهر الحضارة المبكرة فى أشور جاءت إليها من الجنوب ، ولكن يجب ألا ينسينا ذلك أنها كانت معرضة أيضا لتأثيرات من الشمال ومن الغرب ، فمنذ منتصف الألف الثانى ق . م . ظهر فى آسيا الصغرى أقوام من الخيتيين محبون للحرب ، اتجه بعضهم شرقاً إلى بلاد النهرين . وليس بمستبعد أن أشور كانت إذ ذاك فى مهب الرياح فتارة تخضع لغزاة من الغرب ، ثم لا تلبث أن تقع تحت حكم الدويلات الجنوبية التى تزعمها سرجون ثم ملوك أور ثم حمورابى أو غيره من حكام بابل .

وعلمت هذه الحروب المستمرة أهل أشور كيف يحمون حدودهم فى الشمال

والجنوب بعد أن ظلوا نحو ألف عام منذ أن استولى سرجون على بلدهم ، ولسنا ندهش بعد ذلك إذا رأينا الدولة الجديدة تبنى نفسها على أساس حربى فقد كان هناك الجنود غير النظاميين ثم حل محلهم جيش دائم أصبح القوة الرئيسية للحكومة ، وتطورت هذه الدولة الحربية إلى تنظيم قوى ثابت لم تؤثر عليه المنافسات التى كانت بين الدويلات ، تلك المنافسات التى أضعفت مملكة بابل ثم انتهت اخيرا بالقضاء عليها .

وبعد أن زال كل أثر للمنازعات صار فى استطاعة مملكة أشور أن توجه جميع قواها التى توحدت للقضاء على أعدائها الخارجيين ، وساعدهم على ذلك أنهم كانوا قد استخدموا الخيل ثم المركبات فى جيشهم ، وفى النهاية أصبحوا أعظم قوة حربية رآها العالم القديم .

وفى نفس الوقت أغدقت التجارة وصلتهم بالشعوب المجاورة الأموال والقوة على الأمة الناشئة . وكانت قوافل تجارتهم تذهب إلى آسيا الصغرى (كليكيا) لأنهم أحبوا الاتجار فيما تدره مناجم الفضة ، وعرفوا بذلك طرق التجارة فى البلاد الواقعة إلى الغرب منهم وأصبحت أشور مركزا هاما على طريق القوافل الذى ربط بين البلاد الجبلية إلى الشرق منهم وبين البلاد الواقعة إلى الغرب منهم . وكان التجار الأشوريون قد حذقوا أساليب التجارة التى وصلت بها دويلة « أور » إلى مستوى عال فى عهد ملوك سومر وأكد . وعاش كثيرون من تجار بلاد النهرين فى محلات أسسوها فى أماكن متعددة فى جنوب شرقى آسيا الصغرى فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم « كابادوسيا » Cappadocia حيث كشفت الحفائر عن عدد كبير من الوثائق التجارية فى هيئة رقم مكتوبة باللغة المسمارية شبيهة برقم أشور ، ونعرف من هذه الرقم أن هؤلاء التجار الغرباء الذين وفدوا من الشرق كان قد مضى عليهم أكثر من مائتى سنة فى تجارتهم فى كابودسيا أى أنهم بدأوا فى الوقت الذى زادت فيه سطوة ملوك سومر وأكد . وسنرى فى الفصول القادمة كيف لعبت هذه المراكز التجارية

دوراً هاما فى حمل الحضارة ونشرها فى البلاد الواقعة إلى الغرب ، ففى كثير من المدن التى فى جنوب شرقى آسيا الصغرى نرى رقم التجار الأشوريين ، وهذه الرقم أصبحت فى دراساتنا بمثابة علامات توضح لنا الطرق التى سارت فيها الحضارة من بلاد النهرين متجهة نحو جنوب شرقى أوربا .

وأدى استغلال مناجم الفضة فى كليكيا خدمة كبيرة للتجارة والمعاملات وأثر عليها أثراً كبيراً لأن الفضة حلت محل الحبوب كوسيلة للتبادل ولدينا مايثبت أن بعض القطع المعدنية كانت مختومة بما يدل على وزنها وربما مكان اصدارها أيضا . وفى نص من النصوص يقارن الامبراطور الأشورى ستخريب

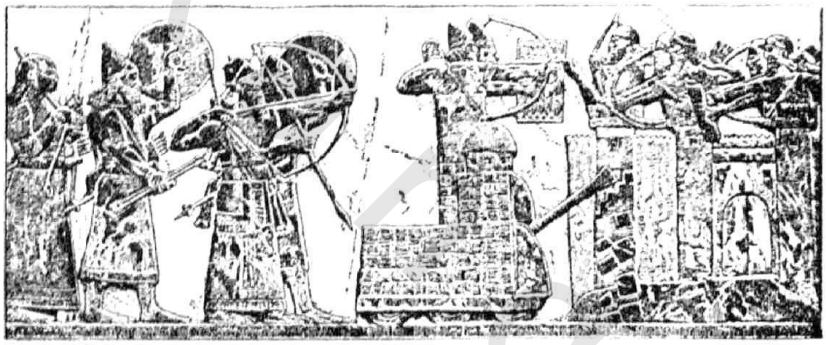

شكل : ٤٧ ــ ملك أشورى يهاجم احدى المدن المحصنه (القرن التاسع ق٠م)

يرجع تاريخ هذا الرسم البارز الى القرن التاسع ق٠م ٠ ونرى فيه كيف وفق الاشوريون الى أجهزة الحصار ٠ ونرى على اليمين مدينة تحميها أسوار مبنية بالطوب اللبن ٠ ويبذل الرماة الذين يدافعون عن المدينة جهدا كبيرا فى صد هجوم منجنيق محمول على مركبة ذات عجلات ، ولا نرى فى الصورة من تلك العجلات الا الجزء الاسفل أما باقيها فانه مغطى بصفائح المنجنيق ٠ وهذه الآلة الحربية ليست الا « دبابة » قديمة يحمى مقدمتها ثوح من المعدن وفى الجزء الامامى منها برج للمهجوم يكاد يصل ارتفاعه الى ارتفاع أسوار المدينة ويهاجم الجنود الاشوريون الذين فى البرج أعداءهم ويرمونهم بما لديهم من سهام أو مرماة بينما يحرك الجنود الاخرون الذين فى داخل الدبابة ذراع المنجنيق المصفح بالمعدن ليحدثوا به ثغرة فى السور ٠ ويحرك عمليات الهجوم ضابط يجلس فى برج المراقبة الذى يعلوه قبة مصفحة بالمعدن وفى تلك القبة طاقات صغيرة لينظر منها٠ وفى المؤخرة نرى الملك الاشورى يطلق سهامه على المدينة ٠

وهذا الرسم من أقدم الرسوم التى وصلت الينا من قصور ملوك آشور ٠ وهذا هو السبب فى أن الفنان لم يراع النسب فى الرسم ، وغالى مغالاة الاطفال فرسم الرجال وكأنهم بلغوا فى الطول أسوار المدينة ٠

الذى عاش فى القرن السابع ق . م صب بعض النقوش البرونزية ، بصب قطع وزن كل منها نصف «شكل» مما يدل على أن الأشوريين كانوا يسكون القطع ذات نصف الشكل قبل سنخريب ، وتلك القطع كانت دون شك الأصل السابق لعملتنا النقدية .

كانت أشور تعلق أهمية كبرى على صلتها بالغرب ، فلم تكن فى حاجة إلى المعادن فى تلك البلاد فحسب بل أنها لم يكن فى استطاعتها أن تحكم آسيا الغربية ، وهى دولة لاشواطىء لها ، إلا إذا وصلت إلى البحر الأبيض المتوسط . ولكن كانت هناك عقبتان تحولان بين أشور وبين ذلك البحر ، أولاهما مملكة ميتانى التى كانت إلى الشمال الغربى من أشور ، وثانيهما الولايات الغنية التى كانت تهتم بالتجارة وكانت تحكم موانىء الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط .

ويجدر بنا أن نتحدث باختصار عن هاتين العقبتين لأن ذلك يكشف لنا عن حركتين كبيرتين لقومين من جنسين مختلفين ، كان وجودهما سببا فى توجيه تاريخ العالم المتمدن .

تكونت الطبقة الحاكمة فى ميتانى من مجموعة من قوم جرمانيين يحتمل أنهم كانوا بدوا نزلوا من المراعى الشمالية وكانوا أحفادا لأوائل الناس الذين تعلموا تربية الخيول ، إذ عرف أولئك الأجداد كيف يربون الخيول ويمرنونها على الحرب وعلى جر المركبات الحربية قبل أن يترك أحفادهم بلادهم فى الشمال وينزلون إلى الهلال الخصيب ، ولهذا كان ميسورا لبعض فرسانهم المهرة أن يندفعوا جنوبا أو غربا ويهزموا من وقف فى طريقهم من سكان منحنى نهر الفرات . واهتم أولئك الناس بتربية الخيول إلى درجة أن أحد الفرسان الذين اشتهر أمرهم بينهم واسمه كيكولى Kikkuli كتب مؤلفا وشعرا لمن يربى الخيول ، وقد عثر فى عاصمة خيتا على جزء من هذا المؤلف على رقم من الطين ، وهو دون شك أقدم ماوصل إلى أيدينا من مؤلفات عن تربية الخيول .

وظلوا فى أرض الفرات يحكمون البلاد ، وكانوا أقدم ارستوقراطية بناها أهلها على تربية الخيول ، وفى النهاية جعل فرسان ميتانى من أمتهم ولاية حربية لها خطورتها .

كان استخدام الجواد بدءاً لعصر جديد فى بلاد الهلال الخصيب ، فعندما كانت تهجم فرقة من العربات تجرها الجياد القوية السريعة وتنزل كالصاعقة على الجنود المشاة فإنهم كانوا يتفرقون كأوراق الخريف ، وهكذا استطاع حكام ميتانى بواسطة مركباتهم الحربية أن يصلوا فى انتصاراتهم فى الشمال الغربى إلى اختراق حدود « خيتا » .

ولم تقف أهمية ميتانى إلى ذلك الحد بل إن موقعها الجغرافى ساعدها على الوصول إلى أهداف أخرى . فإنها كانت ملتقى الطرق التجارية ودروب القوافل التى تبدأ من أشور وتعبر الفرات فى طريقها إلى الغرب . فلم يكن موقع ميتانى يجعلها عقبة كأداء فحسب بل إن ذلك ساعدها على غزو بلاد أشور فاحتلتها ، وكان الأشوريون مدى فترة من الزمن خاضعين لحكمها .

لم يكن الزعماء الميتانيون — بما لديهم من قوة لاستخدامهم الخيل — إلا فى الطليعة لهجرات كبيرة قام بها الأقوام الهندو — أوربيون متجهين نحو الجنوب ونحو الغرب وانتشروا من الهند حتى الجزر البريطانية .

ونحن نعلم أن شعب ميتانى كان يحكم فى منتصف الهلال الخصيب حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . وأن الميتانيين كانوا شعباً يمت بأصله إلى الدوحة التى تتفرع منها بعض الشعوب الأوربية وأنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة الشبه ببعض لغات أوربا .

واستقر بعض القبائل الهندو ـ أوربية فى آسيا الصغرى بين الاناتوليين القدماء، أما الميتانيون أنفسهم فكانوا سداً منيعاً فى وجه تجارة أشور نحو الغرب مدى

قرن من الزمان بل ووصل بهم الأمر أن أوقفوا توسع أشور بوجه عام .

أما العقبة الثانية فى توسع أشور نحو الغرب فهى وجود سلسلة من المدن الفينيقية على الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط . ووجودهم فى تلك المنطقة هو أقدم مظاهر تجمع الأجناس الذى كان السبب الرئيسى فى تشكيل التاريخ الإنسانى ابتداء من ذلك الوقت ، إذ نرى الهندو ـ أوربيين فى الشمال والساميين فى الجنوب وبينما كانت أقدم النقط الإمامية للشعوب الهندو — أوربية كانت فى مملكة خيتا فى آسيا الصغرى وفى بلاد ميتانى على الفرات ، نرى أن توسع الساميين أوصلهم إلى الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط إذ أصبحت موانى ذلك البحر التى كانت يوماً من الأيام فى أراضى البدو الساميين قد أصبحت سلسلة من الدويلات الغنية ذات التجارات الواسعة فى البحار ، ومكنتهم أساطيلهم من أن يصبحوا من ذوى الزعامة التجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط كله ، وأثبتت تلك المدن الفينيقية أنها عدو لملوك أشور لايستهان به .

وبعد القرن السادس عشر ق . م . كان على الأشوريين أن يواجهوا الأخطار الناجمة عن هجرة جديدة لأقوام ساميين سواء فى الناحية التجارية أو فى الناحية السياسية .

وأعظم هؤلاء الأقوام أثراً هم ، الأراميون ، الذين نراهم حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. قد أسسوا عدداً من الممالك المزدهرة فى الغرب وخاصة فى سوريا [1]. واستطاعت تلك أن تبنى مدناً ملكية ذات قصور فخمة بما تيسر لها من أثر الحضارة الخيتية من جهة والحضارة المصرية من جهة أخرى . وإلى جنوبى المنطقة التى استقر فيها الإراميون ، أى فى فلسطين كان قوم ساميون آخرون — وهم العبرانيون — بدأوا

---

١ ـ كثيراً ما يسمى الإراميون بالسوريين ، وتسمى المنطقة الواقعة شمال فلسطين عادة باسم سوريا . وعلى أى حال يجب ألا نخلط كلمتى « سوريا وسوريين » (Syria, Syrians) بكلمتى « أشور وأشوريين » (Assur, Assyrians)

يحتلون الأراضى ويستقرون فيها . وفى أوائل سنى الألف الأول ق . م , كان الإراميون والعبرانيون ، ومعهم الفينيقيون الذين على الساحل احتلوا الجزء الأكبر من الطرف الغربى للهلال الخصيب وباعدوا بين بلاد أشور وبين ساحل البحر الأبيض المتوسط .

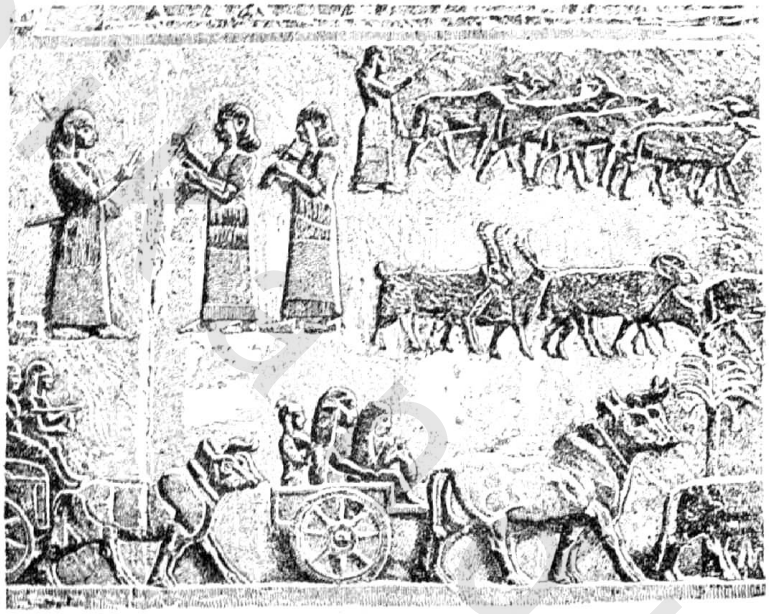

شكل : ٤٨ ـ كتاب أشوريون وأراميون يسجلون الغنائم المستولى عليها من احدى المدن الاسيوية (القرن الثامن قبل الميلاد)

يركب الاسرى من نساء وأطفال فوق عربات تجرها الثيران فى طريقهم الى الرق فى بلاد أشور ، ويسوق أحد الرعاة القطعان التى استولوا عليها · والى اليسار يقرأ ضابط أشورى من رقيم فى يده ، مذكراته عن الغنائم التى استولوا عليها فى المدينة ، ويقف أمامه كاتبان يدونان مايقول · ويمسك أول الكاتبين فى يده بلوح سميك من الطين (= رقيم) رفع منه القلم الذى يقبض عليه بين أصابع يده اليمنى · أما الكاتب الثانى فانه يفرد فوق يده اليسرى قرطاسا من البردى يكتب عليه بقلم فى يده اليمنى · وهذا الكاتب الثانى أرامى يكتب باللغة الارامية بالقلم والحبر · ويمثل هذان الكاتبان طريقتى الكتابة اللتين كانتا سائدتين فى ذلك العهد فى غرب آسيا ، احداهما الطريقة الاسيوية وهى الكتابة على الرقم التى كانت فى طريقها الى الزوال والثانيه الطريقة المصرية أى استعمال الورق والحبر والقلم التى أخذت تعم ·

وامتد نشاط التجار الأراميين إلى خارج بلادهم ، وذهبت قوافلهم إلى جميع البلاد الواقعة على الخليج الصحراوى حتى وصلوا إلى منابع نهر الدجلة وأخيراً أصبحت تجارة غرب آسيا فى أيديهم . وكثيراً مايعثر الباحثون على وزناتهم البرونزية بين خرائب نينوى مما يدل على وفرة عدد التجار الاراميين فى الاسواق الاشورية ، وكانوا مثل أقاربهم اليهود فى الامم الحديثة المتحضرة ، أصحاب النفوذ والزعامة التجارية فى عصرهم ولكن اليهود الحاليين يختلفون عن الآخرين فى أنهم يعيشون كأمة واحدة مثل الاراميين .

كان الاراميون جنسا ذا حظ عظيم من الحضارة . وفى عام ١٠٠٠ ق . م . بل وربما قبل هذا التاريخ بعدة قرون — كانوا يستعملون كتابة ذات حروف أبجدية تعلموها من الكنعانيين أو الفينيقيين ، وهـــذه أقدم أنواع الكتابة التى استعملت حروفاً أبجديه فقط[1] وتعلم الاراميون من المصريين استعمال القلم والحبر وهى أشياء لاغنى عنها فى استعمال الابجدية الجديدة . وكما كانت قوافل البابليين تحمل الرقم المسمارية إلى جميع بلاد آسيا الغربية ، فإن قوافل الاراميين بدأت تحمل إلى كافة أنحاء تلك المنطقة المطالبات التجارية والإيصالات محررة بالابجدية الجديدة التى أخذت تحتل مكان العلامات المسمارية .

وهكذا انتشرت الأبجدية الفينيقية — الأرامية فى جميع بلاد آسيا الغربية ، وذهبت من الفرات إلى إيران بل وصلت إلى حدود الهند وأمدت شعوب شرقى الهند بالأبجدية السنسكريتية Sanskrit وبهذا كان للأراميين فضل نشر تلك الأبجدية الشرقية الأصل فى كتابات جميع أبجديات الأمم المتحضرة الواقعة إلى الغرب من بلاد الهند .

---

١ — كان هذا صحيحا قبل اكتشافات رأس شمرا فى شمال سوريا (المعرب)

وحمل التجار الأراميون لغتهم (اللغة الأرامية) معهم أينما ذهبوا فانتشرت تدريجياً حول الخليج الصحراوى ، ومن الحقائق الهامة أن اللغة الأرامية انتشرت فى المدن الأشورية القديمة حتى أصبح المتكلمون بها أكثر عدداً ممن يتكلمون اللغة الأشورية نفسها .

وعندما كان يتلقى تاجر أرامى رقيما عليه بعض مايتعلق بعمله التجارى محرراً باللغة الأشورية ، فكثيراً ما كان يمسك بقلمه ويخط عليه مذكرات بالأرامية ، وقد عثر الأثريون على كثير من هـــذه الرقم الأشورية التى خط عليها أصحابها مذكرات بالأرامية فى خرائب المبانى الأشورية . وانتهى الأمر بأن اللغتين الأشورية والأرامية أصبحتا تستعملان جنباً إلى جنب فى الأعمال التجارية ، واستخدمت الحكومة عدداً من الكتبة الأراميين فى الوظائف ، وكان من الأمور المألوفة جداً أن يرى الإنسان موظفاً أرامياً فى الحكومة الأشورية . يكتب سجلاته على البردى بسطر مايشاؤه بالقلم والحبر بينما يكتب زميله فى العمل سجلاته على رقيم من الطين .

وأخيراً أصبحت الأرامية لغة الهلال الخصيب كله ، وحلت أيضاً محل اللغة العبرية فى فلسطين . وهى لغة شقيقة ومشابهة للأرامية — وأصبحت لغة التجار الأراميين بعد مضى عدة قرون اللغة التى كان يتكلمها السيد المسيح ويهود عصره فى فلسطين . ووصلت هذه اللغة أيضاً إلى بلاد خيتا إذ عثر فى ساردس Sardes فى غرب آسيا الصغرى على شاهد قبر عليه نقش باللغة الأرامية ، وفى نهاية الأمر انتشرت حضارة الأراميين التجارية انتشاراً واسعاً وتركت وراءها مؤثرات خلدت على الأيام أكثر مما تركته دولة أشور الحربية

ومما يدعو إلى الأسف أن أكوام المدن الأرامية فى سوريا لم يتم حفرها كلها بعد ، ولهذا لم يصل إلى أيدينا إلا آثار قليلة لتحدثنا عن تاريخ تلك المدن .

وما زالت دمشق حتى الآن أعظم المدن السورية إذ يبلغ تعداد سكانها أكثر من مائتى ألف شخص . ولكن بقايا المدينة الآرامية ما زالت تحت بيوت المدينة الحالية . ومن المستبعد جداً أن يكشف أحد عن دمشق القديمة .

ونحن نفهم الآن كيف وقف الجيش الأشورى ينظر إلى تلك الصفوف المتراصة من الدول المعادية ، وكيف رأى نفسه فى موقف يفت فى عضد أية أمة مهما تحلت بالشجاعة . فكان أمامهم مباشرة حكام ميتانى ثم الأراميون والفينيقيون ، وخلف هذه الشعوب قوتان عظيمتان ، مصر فى الجنوب الغربى وخيتا فى الشمال الغربى .

فى القرن الخامس عشر ق . م . كانت الأمبراطورية الخيتية منافساً قوياً لمصر ، ووقف الأشوريون ينظرون إلى الصراع بين هاتين القوتين على امتلاك الطرف الغربى من الهلال الخصيب إلى أن انتهت المعركة بينهما فى القرن الثالث عشر ق . م . دون نصر حاسم لأحديهما .

ورأى الأشوريون كيف أنهكت الحروب قواهما . وما جاء عام ١٢٠٠ ق.م حتى ضعفت كل منهما وزاد فى ضعفهما غزو آخر جديد هدد كلا منهما فانهارت أمبراطورية خيتا وتلتها الأمبراطورية المصرية بعد نصف قرن من الزمان .

ورأت ميتانى فى البداية أن مصلحتها تقضى فى انضمامها إلى جانب مصر ولكنها لم تحتمل الثبات فى مهب المنازعات الدولية الكبيرة وانتهى الأمر بسحقها ، وكان المتنافسون فى حلبة الشرق الأدنى ثلاثة هم مصر وأشور وخيتا ، وكان تنافس ثلاثتهم قوياً عنيفاً ، ولم يأت عام ١١٥٠ ق . م . حتى كانت القوتان الغريبتان قد انسحبتا من الميدان تاركتين أشور وحدها لتصبح الوارثة لأمبراطورية الشرق .

وبعد أن سقطت كل من ميتانى ومصر وخيتا ، بقى الفينيقيون والأراميون وجها لوجه أمام أشور . وكانت دمشق مقر الملوك الأراميين الأقوياء الذين

جمعوا ثروات طائلة من التجـــارة ، وحصنوا مدينتهم تحصينا جعلها قادرة على الوقوف فى وجه أى تقدم أشورى نحو البحر الأبيض المتوسط . ولنضرب مثلا لتوضيح أثر قوة هؤلاء الملوك وهو نجاح دمشق فى حماية مملكتى العبرانيين الصغيرتين لمدة طويلة من الزمن من غزو الأشوريين .

سارت الجيوش الأشورية وعبرت الفرات حوالى عام ١٥٠٠ ق . م ووصلت إلى البحر الأبيض المتوسط حوالى عام ١١٠٠ ق . م . ولكن ظل ملوك أشور مدى ثلاثة قرون ونصف قرن عاجزين عن غزو واخضاع هذه المنطقة الغربية إخضاعا تاما بسبب وجود الممالك الأرامية والفينيقية والعبرية ، فقد وقفت هذه الممالك فى وجه الجيوش الأشورية حتى القرن الثامن ق . م .

وبعد عام ١٠٠٠ ق . م . بقليل ، كانت قوة أشور على وشك أن تبدأ فى تكوين أمبراطوريتها ، ولنقف الآن قليلا وننظر إلى الوراء لنستعرض ما أحرزته أشور من تقدم فى مدى ألفى سنة ، كانت أولى آلات الأشوريين المعدنية مصنوعة من النحاس مثل باقى الشعوب القديمة . وخلال الألف الثالث ق . م . استعمل الأشوريون البرونز بكثرة وبدأوا منذ ذلك التاريخ يصنعون من هذا المزيج المعدنى أدواتهم وأسلحتهم حتى عام ١٠٠٠ ق . م . تقريبا ولهـــذا كانت أسلحة الجنود الأشوريين الذين ساروا للحرب نحو الغرب قبل الألف الأول ق . م مصنوعة من البرونز ، ولكنهم استعملوا بعد ذلك التاريخ أسلحة من الحديد .

كان الحديد معروفا للانسان منذ عصر ماقبل الأسرات ، وعثر على أداة منه مدفونة بين أحجار هرم الجيزة الأكبر ، فقدها أحد العمال القدماء الذين كانوا يعملون فى بنائه ، ولكن ظل استعمال الحديد نادراً حتى اكتشف الخيتيون مناجمه وطريقة إستخلاصه وصناعته فى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى . ووزع ملوك خيتا هذا المعدن فى جميع بلاد الشرق الأدنى ابتداء من القرن الثالث عشر ق . م .

ومن ذلك نرى أنه فى القرون القليلة التى تلت عصر الحديد (Iron Age)
أخذت أشور تستعد لتوسعها نحو الغرب ، وكان استعمال الحديد فى أدواتها الحربية عنصراً هاما فى نجاحها فى الحروب .

ولم يقتصر فضل الغرب — وبخاصة الخيتيين — على الأشوريين فى تعريفهم ومدهم بالمعادن بل أنهم قدموا للحياة الأشورية أشـــياء أخرى من مقومات الحضارة ، فمثلا تعلم الأشوريون من الفن الخيتى الذى كان فى شمال سوريا ، كيف

شكل : ٤٩ — رمز الاله أشور

فوق الرسم الاشورى لشجرة الحياة نرى فى أعلى الرسم قرص الشمس المجنح الذى استعاره الاله أشور كرمز له من الفن المصرى ونرى الاله يرمى الاعداء بسهامه
وتحت رمز الاله ، نرى رمز شجرة الحياة التى جعل منها الفنان الاشورى رسما مزخرفا لنخلة تقوم فى الوسط ويتفرع منها الجريد وأوراقه وخاصـــة فى الجزء العلوى ، وضفروا الاوراق على الجوانب أيضا فى شكل متناسب جميل
وأخذ اليونان هذا الرمز عن الاشوريين واستعملوا هذا الرسم كثيرا فيما بعد فى فنهم .

يقصون أعمال الملك وما أتاه من شجاعة فى صورة كبيرة منقوشة على أحجار عظيمة من المرمر كانوا يضعونها فى صفوف لتزيين جدران القصر .

وكذلك كان الحال فى العمارة . فقد كان لوجود الحجر فى أشور أثر مكن الأشوريين من الاتيان بما لم يستطعه البابليون فى أرضهم غير الجبلية .

وضع الأشوريون لمبانيهم أساسات ضخمة من الحجر كما كان يفعل الخيتيون والسوريون من قبلهم ، أما الأبنية نفسها فاستعملوا فى بنائها الطوب متبعين فى ذلك ما كان يفعله البابليون من قبلهم .

واقتبس الأشوريون من أهل بابل كثيرا من القصص الدينية ورموز الآلهة فقلدوها ودرسوها واحترموها ، ولكنهم لم يفرطوا فى إله قبيلتهم القديم — الإله آشور — الذى أطلقوا اسمه على مدينتهم وعلى قبيلتهم .

وعندما كان الأشوريون فى مجموعهم زراعا يعملون فى الأرض ، وذلك فى أوائل أيامهم ، ظنو أن إلههم أشور إله الزراعة التى تحيا ثم تموت ثم يكتب لها الخلود مثل الإله أوزيريس فى مصر .

ومهما كان الأمر فإن شجرة الحياة كانت أقدم رمز للإله أشور ، وكان الأشوريون يقيمونها ويزينوها عند حلول فصل الربيع كما نفعل بعامود شهر مايو (May hole) . وعندما أصبحت بلاد أشور فيما بعد أمة حربية رأوا فى الههم أشور إله حرب لايرحم واعتقدوا أنه هو إله الشمس . فكان هذا الإله يقود الملوك الأشوريين إلى النصر ويطلق سهامه القاتلة على العدو فيفتك به . أما الرمز الخاص به فإن الأشوريين نقلوا الشمس المجنحة عن الخيتيين الذين كانوا فى شمال سوريا ، والذين نقلوها بدورهم من مصر .

وكانت الإلهة « عشتر » هى أعظم الالهات فى أشور . فكانت الهة الحب . وقد أخذوها عن البابليين .

لم يكن للديانة بين شعب أشور ذى النزعة الحربية القوية ، إلا أثر قليل على أخلاق الناس . وكان الأشوريون فى ذلك مثل من سبقهم من البابليين ويرجع السبب الأكبر فى ذلك إلى أن كلا الشعبين تشابه فى عقيدته عن الحياة الأخرى وأنهم لم يؤمنوا بأنه سيكون هناك حساب فى الآخرة . أما موتاهم فكانوا — مثل البابليين — يدفنونهم تحت أرضية المنازل التى كانوا يعيشون فيها .

وكشفت الحفائر فى مدينة أشور عن عدد من الاقبية المبنية بالطوب تحت أرضية القصر الملكى ، ووجدوا فى تلك الاقبية أجزاء من توابيت حجرية كبيرة الحجم ، وتلك التوابيت هى بقايا أقدم المقابر الملكية التى ظهرت حتى الآن فى بلاد آشور ، لأن جثث ملوك أشور الاقوياء كانت موضوعة فى تلك التوابيت ، أولئك الملوك الذين عاشوا وحكموا وبنوا هناك قبيل نهاية ألفى سنة من التطور الذى مهد لظهور الامبراطورية الاشورية .

وفى خرائب المدينة الملكية التى عاش فيها الملك سرجون الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) عثرت بعثة المعهد الشرقى التابع لجامعة شيكاجو على رقيم مسمارى فيه جدول بأسماء ملوك أشور وعددهم مائة وسبعون. حكم أولهم فى أواخر الالف الثالث ق. م.

وبدأ كاتب هذا الجدول يدون سنى حكم كل ملك ابتداء من أحد الملوك الذين حكموا فى أوائل الالف الثانى قبل الميلاد ، وعندما يتم نشر هذه الوثيقة نشرا علميا صحيحاً سيكون لدينا تقويم دقيق إلى حد لابأس به مدى خمسة عشر قرنا من التاريخ الأشورى .

الإمبراطورية الأشورية

بينما كان هدف التوسع الأشورى الأول هو إخضاع الغرب بغية الحصول على موقع حصين على البحر الأبيض المتوسط . وأملا فى السيطرة على الطرق التجارية بين الشرق والغرب ، فطالما أجبرت الأمم المجاورة المعادية التى تقطن الشمال والشرق والجنوب الملوك الأشوريين على أن يبعثوا بقواتهم وجيوشهم إلى هذه المناطق . وخلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق . م . كان الصراع محتدما بين الامبراطوريتين المصرية والخيتية حول احتلال مركز الصدارة فى الغرب، ولكن الحكام الأشوريين رأوا أن يظلوا فى الشرق ، وحاولوا أن يقووا موقف آشور هناك . بيد أنه عندما وجه الأشوريون أنظارهم ثانية إلى التوسع والغزو صوب الغرب ، كانت قوة أشور فى الشرق فى خطر دائم ، ومن ثم اضطر الملوك إلى أن يقوموا بحملات تأديبية ضد بابل وعيلام . والولايات الصغيرة فى جبال زاجروس ، أو أورارتوا Urartu فى شمال أرمينيا . وفى خلال القرنين الحادى عشر والعاشر ق . م . أصاب أشور انهيار وانحلال نتيجة لغزو قام به الأراميون الذين كانوا يقطنون الطرف الشرقى للهلال الخصيب . ولكن ما أن حل القرن التاسع حتى كانت جيوش أشور بدأت تسير للحرب . وعندما شرعت الإمبراطورية الأشورية فى وضع خططها للتوسع تجاه الغرب موضع التنفيذ ، أنشأت الممالك الغربية أحلافا عدة لصد تقدم الغزاة من الشرق . بيد أن دمشق ، أعم مدينة فى الغرب والمدينة التى طالما كانت فى مقدمة المدن التى قادت المقاومة ، سقطت عام ٧٣٢ ق . م . ولم تلبث البلاد الغربية أن أخضعت إخضاعاً تاماً وأصبحت تحت سلطان الإمبراطورية الأشورية .

وفى وسط الحملات الغربية . وأثناء حصار السامرة ، تلك المدينة العبرية المنكودة

توفى الملك الأشورى (٧٢٢ ق . م) وعند ذلك آل العرش لابنه ، الذى تلقب عندما تولى العرش باسم سرجون تيمنا باسم سرجون السامى الذى كان أول الحكام العظام لبابل ، والذى حكم قبل ذلك بألفى سنة ، ووصلت الإمبراطورية الأشورية على يد سرجون هذا الذى نعرفه باسم سرجون الثانى إلى ذروة مجدها وغاية سطوتها كامبراطورية عسكرية . وكان خلفاؤه أعظم الأباطرة الأشوريين[1] . وبنى سرجون الثانى قصراً ملكيا جديدا فى شمال شرق نينوى . وكان هذا القصر أكبر القصور التى عرفتها آسيا إلى ذلك الحين وأكبرها اتساعا وأعظمها رونقاً وبهاء .

ولقد أطلق عليه اسم دورشـــاروكن (dur-Sharrukin) (سارجو نبرج Sargonburg) وكانت مساحة فنائه ميلا مربعاً ، تكفى لإيواء عدد من الشعب يبلغ تعداده ثمانين ألفاً ، وأما مبنى القصر نفسه فكان يشغل مساحة خمسة وعشرين فداناً . وهـذا مالم تحط به بابل فى أوج عظمتها وازدهارها إذ لم يكن لهـا مركز للحكم مثل هـذا ، وهكذا أصبحت أشـور من نواح متعددة سـيدة بلاد غرب آسيا .

ولـكن عظمة سرجون الثانى هـذه كانت دون مجد ابنه سنحاريب الذى كان سياسيا من أعظم ساسة الشرق الأدنى القديم. وكان اسمه ذائعاً مرهوباً بين شعوب البلاد التى فى آسيا الصغرى ، إذ قام بحملات نهب فيها مدينة تارسوس والحصـون الإغريقيـة الأيونيـة التى تقع فى أقصى الشرق وكان ذلك بعد

---

١ ـ اهم ملوك اسرة سرجون الثانى هم :ـ

سرجون الثانى	Surgon II	٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق.م
سنحاريب	Sennacherib	٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م
اسر حدون	Esarhaddon	٦٨١ ـ ٦٦٨ ق.م
اشور بانى بال	Assurbanipal	٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م

(ويطلق عليه الاغريق سارداناپالس Sardanapalus

عام ٧٠٠ ق م بقليل وبعد ذلك أخذت حملاته تتقدم نحو الجنوب ، فاستولت على المدن الفينيقية الساحلية التى تقع على شاطىء البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحدود المصرية . وفى الواقع قضى وباء على جزء عظيم من جيش سنحاريب ، جاءهم هذا الوباء من مستنقعات الدلتا . ذلك الوباء الذى نظر إليه العبرانيون على أنه ملاك الرب (يهوى) وهذا هو السبب فى أن سنحاريب لم يعبر حدود مصر . بيد أنه اتخذ سياسة حازمة قوية عنيفة إزاء مدينة بابل ، عدوته القديمة . إذ كانت هذه المدينة تقوم بثورة بعد أخرى مما جعل سنحاريب يصمم على القضاء على مدينة حمورابى قضاء مبرماً ، بل لم يجد بأساً من أن يحول مجرى إحدى القنوات لتغمر أطلال هذه المدينة التى فر عنها أهلها فأضحت أطلالا فوق أطلال .

وهكذا باتت بابل أثرا بعد عين . ولكن القوة التى تكمن فى النيل ظلت مصدر خطر على التوسع الأشورى . فكانت جميع الولايات التابعة للامبراطورية الأشورية ترزح تحت عبء باهظ من الجزية التى فرضت عليها ، ولهذا فلم يكن من العسير على مصر أن تثير الفتن بين هذه الشعوب الغربية التى ناءت بتلك الأعباء . تلك الشعوب التى كان يحدوها الأمل فى التخلص من وطأة هذه الجزية . ورأت أشور أن تدخل مصر يجب أن يوقف عند حده ومن ثم ظهر ابن سنحاريب أمام أبواب القلاع الشرقية فى الدلتا عام ٦٧٤ ق . م . ولقد صد أول الأمر ورد على أعقابه ، ولكنه عاود الهجوم ، ورغم أنه مات قبل أن يدخل الدلتا إلا أن مصر سقطت فى النهاية فريسة للجيوش الأشورية ، وأصبح حفيد سنحاريب لفترة من الزمن سيد النيل الأدنى .

ولم يأت عام ٧٠٠ ق . م حتى كانت الامبراطورية الأشورية تحكم الهلال الخصيب بأسره وامتدت حول الخليج الصحراوى بل وشملت فضلا عن ذلك مساحة عظيمة من المناطق الجبلية الشمالية الواقعة بعدها وأدى إخضاع مصر إلى

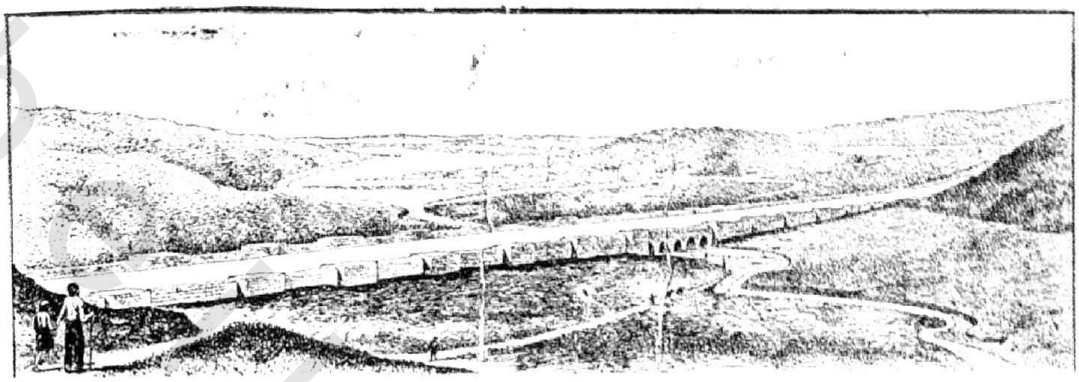

شكل : ٥٠ ـ أقدم القنوات الصناعية المعروفة : أنشأها الملك سنحاريب

اكتشف المعهد الشرقى بجامعة شيكاجو أطلال هذه الاعجوبة التى تدل على المهارة الهندسية الفائقة فى عام ١٩٣٣ . وكانت هذه القناة جزءا من مشروع سنحاريب الهائل للرى والذى كان يقصد من ورائه مد الحقول التى كانت حول نينوى بالمياه من الجبال الشماليه التى تبعد ثلاثين ميلا . ولما وجد المهندسون الاشوريون أنه لابد من نقل المياه فوق نهر صغير أنشأوا قناة حجريه هائلة يبلغ طولها حوالى ١٠٠٠ قدم وعرضها ٨٠ قدما . حيث تجرى فيها المياه بين سورين منخفضين يبلغ سمك كل منهما ٩ أقدام . وهكذا لم تكن المياه تجرى فوق النهر الصغير وكأنها فوق قنطرة فحسب ، بل كانت تجرى أيضا عبر وادى النهر الذى كان يبلغ اتساعه ١٠٠٠ قدم .

(صورة لما كانت عليه عند تصميمها ـ عن سيتون لويد Seton Lloyd

ضم وادى النيل الأدنى فى الغرب . ولكن مصر كانت بعيدة جدا وكانت أصعب من أن يحتفظ بها لوقت طويل ولما كانت الغزوات والفتوحات الأشورية تستند إلى قوة عسكرية مستمرة ، فقد كان فى مقدورها أن تبقى خلال جيلين كاملين بعد سرجون الثانى . فقد كونت هذه الفتوحات أعظم الإمبراطوريات التى عرفها العالم اتساعا وسطوة .

ولم يكتف سنحاريب بتوسيع نطاق القصور الملكية القديمة التى آلت إليه عن أجداده سواء فى أشور أو سارجنبرج . بل كرس جهوده لإصلاح وتجميل مدينة نينوى فى شمال أشور . وجعل منها عاصمة الإمبراطورية الأشورية الذائعة الصيت . ولكى يضمن للمدينة مورداً مائياً كافيا وصلها بالأنهار التى تجرى من الجبال الشمالية وذلك ببناء قناة صناعية هائلة .

وقامت على ضفاف نهر دجلة قصور ضخمة هائلة ومعابد ذات أبراج مرتفعة مما أقامه الأباطرة الأشوريون ، وكانت أسوار نينوى الشاهقة الضخمة التى أنشأها سنحاريب تمتد قرابة ميلين ونصف على ضفاف نهر دجلة، كما أن طول هذه الأسوار داخل المدينة بلغ قرابة ثمانية أميال . وجعل سنحاريب من قصره الفخم مركزاً يحكم منه العالم الآسيوى وجميع الشعوب الخاضعة له . بيد من حديد .

وكانت إدارة هذه الإمبراطورية بأسرها تتركز فى ديوان الملك ، الذى وضع نظاما للرسل الملكيين . وشرع فى إنشاء الطرق وتمهيدها .وكان ذلك أول عهد لآسيا بإنشاء الطرق وما زال أحد هذه الطرق باقيا إلى الآن أنشأه سرجون الثانى ليصل نينوى بمدينة القصر ، سارجنبرج ، وعين الملك فى جميع النقط الهامة على الطرق الرئيسية موظفا ليقوم بالأشراف على جميع الأعمال الملكية وبتيسير إجراءاتها ، وبهذه الطريقة أمكن ضمان سهولة أمر انتقال الرقم البريدية ، والمحاصيل والبضائع

التى تتعلق بالقصور الملكية . وكان هذا النظام بداية لنظام البريد الذى كان له أن يبقى معمولا به عدة قرون فى الشرق الأدنى . وكان الامبراطور الأشورى يتسلم الرسائل ويلتقى التقارير مما يزيد على ستين حاكما للولايات والمناطق التى كانت تحت حكمه ، وذلك عدا الرسائل التى تصله من عدد كبير من الملوك المغلوبين الذين كان يسمح لهم فى بعض الأحيان أن يظلوا فى مراكزهم وعلى عروشهم تحت السيطرة الأشورية ، ومما وصل إلى أيدينا عدد من الرسائل التى كتبها سنحاريب نفسه ، عندما كان وليا للعهد ، وأرسلها إلى أبيه الملك سرجون .

وكان هدف الدولة ومهمتها الكبرى هو الاحتفاظ بجيش قوى وفى الواقع كانت الدولة عبارة عن جهاز عسكرى هائل ، يلقى الرعب فى قلوب الناس بدرجة لم يعرفها العالم حتى ذلك التاريخ . ويمكن أن تتصور مثل هذا الموقف ، وأن تقربه إلى أذهاننا إذا تخيلنا أن وزارة الحربية تصبح الإدارة الحكومية المركزية فى عاصمة المملكة وأن الحكومة كلها تكرس جهودها فى هذا السبيل . وهنا يجدر بنا أن نعيد ذكر حقيقة هامة ساعدت فى الوصول إلى هذه النتيجة ، وهذه الحقيقة هى أنه نتج من إلتقائهم بالحيثيين فى الغرب أن بدأ استعمال الحديد بين الأشوريين ومن ثم كانت القوات الأشورية هى أقدم الجيوش الكبيرة فى العالم التى زودت نفسها بأسلحة حديدية .

وفى قاعة واحدة لحفظ الأسلحة فى قصر سرجون عثر على ما يقرب من مائتى طن من الأدوات الحديدية ، ولهـــذا يمكننا أن نقول أن قيام الإمبراطورية الأشورية وسيادتها كان إلى حد كبير راجعا إلى ظهور الحديد واستخدامه .

كان الجزء الأعظم من الجيش الأشورى يتكون من رماة يعضدهم جنود من حاملى الرماح المدججين بالسلاح وحاملى الدروع . وإلى جانب هؤلاء كان الفرسان

وراكبو العربات من نينوى الذين كانوا بمثابة السوط الذى يلهب ظهر الشرق . ولأول مرة فى التاريخ استخدم الأشوريون المنجنيق وغيره من آلات الحصار . وكان من اليسير على هذه الآلات أن تصدع الأسوار الطوبية فى المدن الأسيوية تلك الأسوار التى جففتها حرارة الشمس . وتفتح فيها الثغرات ، وكان من العسير أيضا على أية قلعة مهما كانت مناعتها أن تقاوم طويلا هجوم المشاة الأشوريين الذين اشتهروا بالشدة فى الحروب .

فإلى جانب الأسلحة الحديدية والآلات الحربية اتسم الجنود الأشوريون بقسوة فطرية خاصة ألقت الرعب والهلع فى نفوس أهل غرب آسيا وجعلتهم يفزعون من ذكر قوات النينويين[1] وأينما ذهبت الجيوش الأشورية تركت وراءها ذيلا من الخرائب والأطلال . وبين الأكوام التى يتصاعد منها دخان الحرائق والتى كانت يوما ما مدنا عامرة ، وضعوا صفوفا متراصة من القوائم الخشبية علقوا عليها جثث الحكام الثائرين بعد سلخ جلودهم وهم أحياء ، بينما ارتفعت حولهم أكوام القتلى ، التى وضعها الجنود الأشوريون فوق بعضها ليشيدوا بذكرى النصر العظيم . ويحذروا الآخرين من الاحتجاج أو الثورة . وخلال سحب من الغبار ، ارتفعت على جميع الطرق الرئيسية فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، رأى سكان الممالك المهزومة قطعانا ضخمة من الماشية ، والخيل والحمير ، والماعز ، والخراف ؛ ومعها قوافل طويلة من الجمال المحملة بالذهب والفضة التى استولوا عليها من البلاد المهزومة وتجتمع كل هذه وتلك فى قصر الملك فى نينوى . ويسير أمام هذا الركب زعماء هذه الممالك المغلوبة ، وقد ربطوا حول أعناقهم رؤوس أمرائهم السابقين التى فصلوها عن أجسادهم ، ولا شك أن هذه الثروات المسلوبة كانت ضرورية لقيام الجيش وسد حاجاته ، ولكنهم استخدموها أيضا فى أغراض أخرى غير حربية .

---

١ ـ انظر ناحوم فصل ٣ و ٢ـ٣

كانت القصور الأشورية معمارية توحى إلى الناظر بقوة منشئيها الطائلة وكانت الأقواس الثلاثية تقام فى مدخل القصور الأشورية . وكانوا يغطون جدرانها بطبقة من الطوب المزجج ذى الألوان الزاهية، وكانت هذه الأقواس هى الأصل الذى أخذ عنه الرومانيون فيما بعد عندما أقاموا أقواس النصر . وعلى كل من الجانبين قامت تماثيل من المرمر على هيئة ثيران ذوى رؤوس آدمية ، وفوق كل هذا ترتفع أسوار شاهقة تعلوها الأبراج مبنية من الطوب المحروق . يراها الناس فى المدينة الملكية من مسافة بعيدة .

أما فى داخل القصر فقد كان هناك أفريز سفلى مزخرف يمتد على الجدران مئات من الأقدام وعليه صور بارزة منحوتة فى المرمر . وعثر المنقبون الآثريون فى نينوى فى تل واحد على واحد وسبعين ردهة من ردهات القصر ، وأزاحوا النقاب عن ميلين من هـــذه الصور البارزة المرمرية التى نقلوا كثيرا منها إلى المتحف البريطانى .

وتمثل هذه النقوش أعمال الأباطرة سواء فى الحروب أم فى ميادين الصيد ، وتتشابه الصور الآدمية تشابها يبعث على الملل وقلما نرى إحساسا على الوجوه . وربما كان الطابع الرسمى للصور وحجمها الكبير ، حالا دون رسم صور معبرة دقيقة ، وعلى أية حال فإن الحيوانات المفترسة التى نحتها المثالون الأشوريون كانت ناجحة ونجح هؤلاء الفنانون فى إظهار طباعها القاسية . ولقد سرت طبيعة النمر فى دماء الأشوريين حتى ظهرت فى رسومهم المنحوتة . ومن جهة أخرى ، تعتبر التعبيرات العاطفية للألم والعذاب التى تظهر فى ملامح بعض هذه الأشكال الحيوانية الرائعة . نصراً فنيا جليلا . وإن كان المرجح أن المثال الأشورى قد توصل إليه إلى حد ما ، عن طريق دراسة الاسود والثيران الفخمة التى كانت ترسم على الأختام البابلية

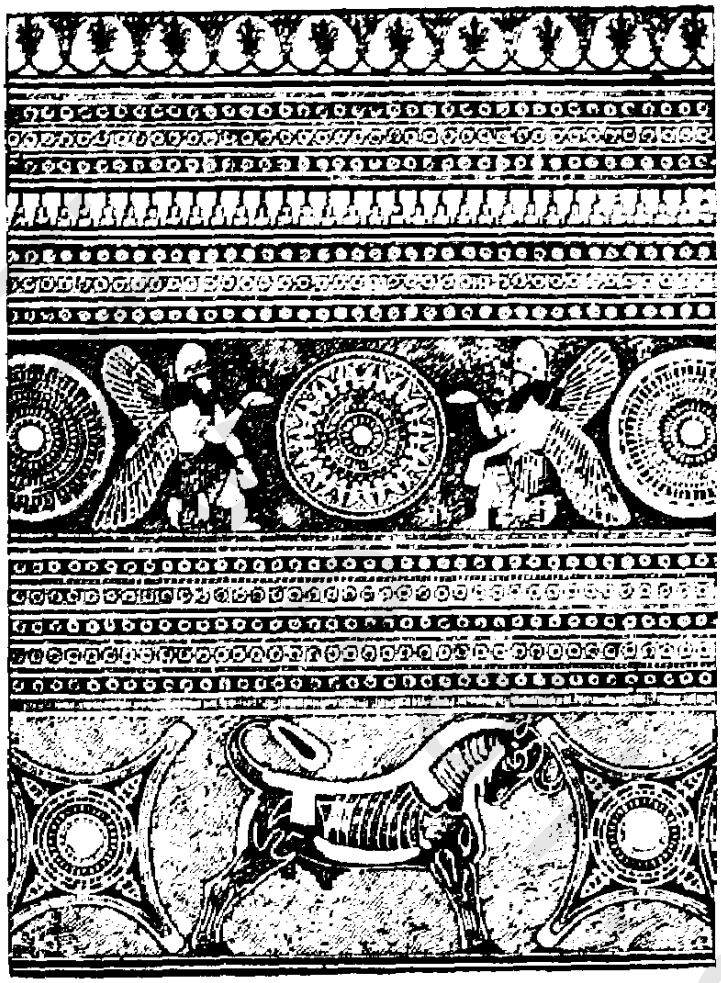

شكل : ٥١ ـ زخرف حائطى فى دار موظف فى بلاط سرجون الثانى

تتكرر هذه الرسوم الزخرفية على جدار من حجرة تبلغ مائة قدم طولا . ويلاحظ أن أشكال الثيران والمعبودات المجنحة صورت فى أوضاع يتلو بعضها بعضا مكونة حلقات متتالية فيها كثير من الانسجام الايقاعى فى الالوان

من اكتشاف المعهد الشرقى فى دور شروكن : وهى مدينة خورسباد الحالية والصورة من عمل الفنان (C.B. Altman)

القديمة فى عهد سرجون الأول منذ الفين من السنين ، وحقيق بنا أن نقر بأن تصوير الحيوانات فى فن النحت الأشورى قد فاق مثيله فى أى شعب من شعوب العالم القديم .

وكثيراً ما كان يرسم فوق الافريز المنحوت فى جدران القصر رسوم ملونة ذات مناظر جميلة وكانوا يضعون طبقة من الطلاء الأبيض فوق الطبقة الطينية السطحية لتصبح أرضية للمناظر المرسومة ، وتتكون الزخارف بصفة عامة من نطاقات وأشرطة مملوءة بالأشكال مثل المعبودات المجنحة أو الغزلان أو الثيران الخ . أو يملؤونها بزخارف مثل الأشكال الوردية ، أو التى تشبه النخيل . أو الأقراص أو الدوائر المقسمة أو مايشبه زخارف الأسوار .

وقد اكتشفت بعثة المعهد الشرقى فى خورسباد منذ عهد قريب فى دار موظف فى البلاط الملكى رسما على حائط يمتد بطول الحجرة ، والألوان المستعملة هنا هى الأحمر والأزرق والأبيض مع تحديد الأشكال باللون الأسود ، وقد دل التحليل الكيمائى على أن اللون الأحمر مأخوذ من سلفات الزئبق ، وأن اللون الأزرق مأخوذ من حجر اللازورد ونجح الأشوريون نجاحا كبيرا فى استعمال الألوان عند رسمهم للمناظر الملونة ، ونرى انسجاما جميلا فى ترتيب المواضع المرسومة .

ومن الطبيعى أن يقتبس الأشوريون كثيراً من الحضارات التى سبقتهم إذ ظهر فن صناعة تزجيج القوالب الملونة من مصر وبابل منذ أمد بعيد ، كما نرى أن كثيراً من الرسوم الزخرفية فى أعمال الفنانين الأشوريين مصرية الأصل ، كما أن قطع الأثاث المطعمة بالعاج والأبانوس التى كان يضعها العمال الفينيقيون تكشف أيضاً عن أصلها المصرى ، وكان العمال الفينيقيون فى نينوى يقومون بصنع أطباق من البرونز المنقوش بمهارة فائقة ، وهم فى ذلك يجمعون بين الطرازين المصرى والأشورى ،

ويخبرنا سنحاريب أنه كان لديه فى قصره « بوابة بنيت على نمط قصر حيتى » ، كما أن أسلافه طالما شيدوا بوابات مماثلة لتلك التى رأوها فى دولة الحيثيين فى الغرب ، وكان من أهم خصائص الأباطرة الأشوريين قدرتهم على استعمال ما يقتبسونه من شعوب أجنبية عنهم .

وقد تمكن سنحاريب عن طريق القناة الصناعية التى أنشأها أن يروى الحدائق الغناء التى زرعها على شاطىء النهر قبل نينوى وبعدها ، وفى تلك الحدائق استنبت كثيراً من الأشجار والنباتات الغريبة من جميع أنحاء أمبراطوريته العظيمة ، وكان من بين هذه الأشجار شجيرات القطن التى قال عنها « إن الأشجار التى تحمل الصوف جناها القوم ومشطوا صوفها لصنع الملابس ». وجاءوا بهذه الأشجار من الهند . وهكذا نرى أن القطن ظهر أول ماظهر فى العالم القديم فى ذلك الحين ، ذلك القطن الذى يساهم بنصيب وافر فى إقامة صرح مجدنا الاقتصادى (١) .

واهتم الأشوريون أيضاً ببعض الفنون السامية ، فازدهر الأدب لديهم ، وشرع سرجون الثانى مثلا فى جمع مكتبة من الرقم عليها مؤلفات قديمة ، وسار من جاء بعده على منواله وظلوا على شغفهم بالأدب واهتمامهم به . ويفخر « أشور — بانى — بال » حفيد « سنحاريب » وآخر الأباطرة الأشوريين العظام ، بأن أباه لم يهىء له سبل تعلم الفروسية وإتقان رمى القوس والسهم فحسب ، بل علمه الكتابة على الرقم وأدبه بأدب العصر وحكمته .

وكشفت الحفائر بين أطلال حجرات مكتبة « أشور — بانى — بال » فى نينوى عن مجموعة من اثنين وعشرين ألفاً من الرقم ظلت ملقاة على أرضها ألفين وخمسمائة سنة ، وهى موجودة الآن فى المتحف البريطانى . وجمع الملك فى هذه

---

١ — لاشك أن شجرة القطن هذه تشابه القطن الذى ينمو فى المناطق الدنيا من الولايات الجنوبية فى الولايات المتحدة الامريكية .

المكتبة المؤلفات الدينية والعلمية والأدبية وفق نظام دقيق — حسب رغبته — وكانت دون ريب أقدم مكتبة عرفتها آسيا . لقد كان الأشوريون أعظم تقدما فى هذه الأمور من البابليين ، كما أن الحضارة الأشورية كانت أبعد من أن تكون ترديداً وصدى للحضارة البابلية .

بيد أن الأباطرة الأشوريين أتوا بخطأ سياسى جسيم ، وإن كانوا لا يختلفون فى ذلك عن كثير من الحكام الذين جاءوا بعدهم . لأن حروبهم أدت إلى القضاء على السكان الذين كانوا مهرة فى الصناعة والذين كانوا مصدراً للثروة والرخاء ، حدث هذا أول الأمر فى نطاق بلادهم ، ثم فى جميع أنحاء الممالك التى أخضعوها . ورغم اهتمام الأباطرة الأشوريين بإدخال نوع جديد من النسيج مثل القطن إلا أنهم لم ينشئوا أو بالأحرى لم يكن فى إمكانهم إقامة صناعات أو معاملات تجارية كالتى قامت فى بابل .

فلقد كان الشعب بصفة عامة شعباً زراعياً وكان من اليسير أن يستدعى الرجال من مزارعهم لفترات قصيرة لحماية حدودهم . فلما اتسعت الأمبراطورية لم تكن هذه الجماعات من القوات المرتقة كافية لأداء الغرض المرجو منها .

وأصبح الزراع يستدعون بصفة دائمة من حقولهم ليملئوا مراتب جيش دائم آخذ فى النمو المطرد . وليس من المستبعد أن الطبقة الحاكمة قد حرصت على شراء الملكيات الزراعية الصغيرة بغية إنشاء ضياع شاسعة ، فإننا نقف على أنباء قنوات قد أهملت ، وعن حقول مهجورة ، عندما نقرأ عن جهود سرجون الجبارة لإعادة المجتمعات الزراعيه القديمة . ورغم كل هذا فإن هذا التوسع الحربى الذى قامت به الأمبراطورية وصل بها إلى درجة من الاتساع أصبح من العسير معها على هذا الجيش الدائم أن يحمى حدودها .

ولما توالت أنباء الثورات الجديدة ، أقلقت الحاكم فى نينوى وجعلته يأمر

رعاياه فى الممالك الأجنبية بدخول الجيش ، وليس يدهشنا بعد ذلك أن تأخذ قوى الأمة الأشورية فى الضعف وفقد القوة الكامنة فيها ، وقد رأينا هذا الجيش الذى بلغ تعداد الأجانب فيه حداً أصبح يهدد الأمبراطورية بالخطر ، ورأينا انهيار الصناعات واضمحلالها وهجر الحقول التى أصبحت معطلة ، فضلا عن أن الحركة التجارية فى البلاد باتت فى قبضة التجار الأراميين ، وأن اللغة الأرامية ذاعت بين المدن فى جميع أنحاء الأمبراطورية وانتشرت بها ، حتى فى مدينة نينوى ، وطغت على اللغة الأشورية نفسها

وإلى جانب هذا الضعف الداخلى ، كانت تهدد الأمبراطورية أخطار داهمة من الخارج . وهذه الأخطار جاءت ، كما درجت العادة منذ القدم من كلا جانبى الهلال الخصيب . فقـــد استمرت القبائل الأرامية فى احتلال بعض أجزاء الأمبراطورية شيئاً فشيئاً ، بعد أن نزحت من الصحراء .

ويدعى سنحاريب بأنه استطاع فى حملة واحدة أن يأسر مائتى ألف أسير من بابل معظمهم من الأراميين وفى نفس الوقت كانت هناك قبيلة صحراوية تعرف باسم كلدى (Kaldi) نطلق عليها الآن إسم الكلدانيين قد شرعت منذ عدة قرون فى الاستقرار التدريجى حول رأس الخليج الفارسى والإقامة على شواطئه فى سفوح الجبال الشرقية ، وكان هؤلاء الكلدانيون بدواً ساميين أخذوا يلعبون نفس الدور الذى يلعبه الأكديون إزاء أكد والأموريون إزاء بابل .

ومن جهة أخرى ، كانت القبائل والجماعات الهندية الأوربية موجودة دائماً عبر الجبال الشمالية ، منذ أيام الفرسان الميتانيين . حقيقة أن الميتانيين اختفوا منذ أمد بعيد ولكن قبائل غيرها وهى قبائل الميديين والفرس من الشـــعوب الهندو أوربية كانت فى طريقها إلى القوة والسلطان .

وكان لهذه الحركات أثر بالغ فى زعزعة الأمبراطورية الأشورية دون شك ،

وكان المصريون قد تخلصوا من عبء السيطرة الأشورية . ولكن فرعون مصر ؛ وقد أفزعته جماعات البرابرة الشماليين ، إضطر إلى إرسال جيش لمد يد المساعدة للأشوريين .

ولم يحل عام ٦١٦ ق . م حتى كان الكلدانيون قد سيطروا على بابل وأصبحوا سادتها . ولقد زحف « نبوپولاسر Nabopolassar » الملك الكلدانى الجديد فى بابل ، الذى لقب نفسه « بملك أكد » زحف ضد الأشوريين وهزمهم فى موقعتين ، وبلغت فتوحاته بعدها حتى عاصمتهم القديمة أشور ، ولكنه فشل فى الاستيلاء على هذه المدينة ، وعلى أية حال فقد زحف الميديون من الجبال الشمالية فى السنة التالية (٦١٤ ق.م) وساروا بإزاء نهر دجلة ثم استولوا على أشور ، ووصل (نبوبولاسر) متأخرا فلم يشترك فى الهجوم ، ولكنه عقد تحالفاً مع سياكسارس (سياخار) (Cyaxares) وهاجما مدينة نينوى سوياً .

ولما كانت مدينة الأباطرة الأشوريين القوية قد عانت جيلا كاملا من الانهيار الداخلى ، فقد سقطت (عام ٦١٢ ق.م) بعد أن قاومت دون طائل هذه الهجمات المتكاتفة من الخارج . وعلى لسان النبى العبرانى ناحوم (الاصحاح الثانى ٨ ، ١٣ والإصحاح الثالث جميعه) نسمع صدى صيحة الفرح التى ترددت فى جميع أنحاء الإمبراطورية من بحر قزوين حتى نهر النيل عندما رأت الأمم أن السوط الرهيب الذى ألهب ظهور شعوب الشرق لم يعد له وجود . وكان سقوط نينوى سقوطاً أبدياً لا مرد له وعندما مرّ اكسينوفون (Xenophon) وصحبه العشرة آلاف أغريقى بهذا المكان بعد مضى قرنين من الزمان لم تكن الأمة الأشورية بعد ذلك اليوم سوى أسطورة غامضة ، ولم تكن نينوى عاصمتها سوى كومة هائلة من الأطلال لا تختلف عما نراها عليه اليوم . وفرت فلول الجيش الأشورى صوب الغرب وظلت فترة قصيرة من الزمن تقاوم بعد أن ساعدتها القوات المصرية ، ولكن ذلك

لم يدم طويلا فانهزموا وانتهت القوة الأشورية . حتى اللغة الأشورية كان مآلها إلى الزوال ، وأصبحت الأرامية هى اللغة التى يتحدث بها سكان دولة أشور ، كما أصبحت أيضاً لغة بابل . وهكذا انتهى الفصل الثانى الكبير للتاريخ على ضفاف بلاد الرفدين ولم يكن قد استغرق إلا أقل من قرن و نصف من الزمان (من حوالى ٧٥٠ حتى ٦١٢ ق. م)

وبالرغم من أن سقوط الأمبراطورية الأشورية كان سقوطاً مباغتا وعنيفاً إلا أنه ترك الأمم التى تقع فى غرب آسيا فى حالة تختلف اختلافاً كلياً عن الحالة التى وجدها عليه الأباطرة الأشوريون الأوائل .

تجمعت الشعوب الواقعة فى الناحية الشرقية فى البحر الأبيض المتوسط وخضعت لسلطة حاكم واحد ، جعلها تتصل ببعضها اتصالا وثيقاً مستمراً صبغها كلها بصبغة متشابهة وأصبح لبلاد الشرق الأدنى — للمرة الأولى فى تاريخها — حضارة عامة بينها .

ومن الطبيعى أن تتقدم أساليب الحكم وأنظمتها فى مثل تلك الأمبراطورية ، وقد استفادت من ذلك الأمبراطورية الفارسية التى نشأت بعد سقوط دولة أشور بستين سنة ، واستمرت على اتباع ما كان هناك من تنظيم فى إدارة الحكومة . فقد خطت الأمبراطورية الأشورية خطوات واسعة وخاصة فيما يتعلق بنظامها الحربى العظيم فى سبيل الفكرة التى كانت منذ ذلك الحين فى نمو مطرد ، ألا وهى ضم قوة العالم فى قبضة يد واحدة ، هذه الفكرة التى كان لهـــا أن تتحقق فى النهاية على يد الأمبراطورية الرومانية .

وبالرغم من فظاظة الحكم الأشورى وقسوته ، فإنه كان خطوة فى تقدم الحضارة ، فإن بناء القصور الفخمة فى نينوى وفيما جاورها من المناطق كان الصفحة الأولى فى

مجد المعمار فى آسيا . وفى نفس الوقت كان لدى نينوى أول المكتبات التى عرفت هناك ، ويجب ألا ننسى أن الحكم الأشورى — كما سنرى فيما بعد — كان سبباً فى ذلك الصراع الدولى الذى مكن اليهود من أن يتصوروا إلههم تصوراً كله مجد وإجلال ، وذلك عندما قارنوه بإله الحرب الأشورى . ذلك التصور الذى له منذ ذلك الوقت أعمق الأثر على تاريخ الأنسان .

الأمبراطورية الكلدانية

أسس الكلدى ، أوالكلدانيون ، سادة بابل الجدد ، امبراطورية جديدة كانت حياتها القصيرة هى الفصل الثالث الكبير فى تاريخ بلاد الرافدين ، لقد كانوا آخر السادة الساميين الذين حكموا بابل القديمة .

وأقام الكلدانيون عاصمتهم فى بابل . التى أعادوا إنشاءها بعد تخريبها على يد سنحاريب وسموا بلادهم أكد ، ولكننا نطلق عليها اليوم اسم « كلديا » . وفى عام ٦٠٥ ق . م وعلى مقربة من بلدة قرقميش Carchemish على نهر الفرات ، هزموا جيوش الغرب المتحالفة التى كانت تشمل فلول الجيش الاشورى تعضدها قوات مصرية . وهكذا شملت أمبراطورية الكلدانيين الهلال الخصيب بأسره . أما فيما يتعلق بالميديين فقد تركوهم يحكمون الجبال الشمالية .

ولما قفل نبوخد نصر راجعاً من انتصاره المبين فى موقعة قرقميش بدأ ذلك الأمبراطور الذى يعتبر أعظم الأباطرة الكلدانيين جميعاً ، حكمه (٦٠٤ ق . م) الذى استمر أربعين عاما — وهو حكم بلغ فيه الرخاء مبلغه ، ووصلت قوة الأمبراطورية إلى غايتها ، وليس أدل على ذلك من ذكره فى التوراة . فقد كان نبوخدنصر إحدى الشخصيات العظيمة فى تاريخ الشرق . ولما نفذ صبر نبوخدنصر إزاء تلك الثورات العنيدة التى قامت فى الغرب والتى كانت مصر تؤازرها وتظاهرها . قام بحملات تأديبية ضد هذه البلاد وخاصة مملكة يهودا العبرانية الصغيرة . ثم نقل كثيرا من اليهود أسرى إلى بابل ، ودمر عاصمتهم « أورشليم » (٥٨٦ ق . م)

وبالرغم من الحروب الطويلة العنيفة التى خاضها نبوخدنصر ، وجد هذا الملك العظيم من الوقت متسعاً ومن المال وفرة ليوسع من نطاق بابل ويجملها . ورغم

أن نبوخدنصر قد قلد آشور فى أشياء كثيرة إلا أنه فاق أسلافه الاشوريين فى عظمة وأبهة المبانى التى شرع فى إنشائها . فقد أعاد بناء المعابد فى الحى المقدس الشاسع ، حيث كانت تعبد الآلهة البابلية التى كانت تتمتع بتقديس تقليدى . وأنشأ طريقا لمرور المواكب يصل هذه المعابد بالقصر ، مارا ببوابة كبيرة هائلة تعرف « ببوابة عشتر » لأنها كانت مقامة باسم هذه الإلهة . وخلف هذه البوابة يقع القصر الملكى الشاسع ، وتقوم الدواوين الحكومية ، بينما ارتفع فوق الجميع المعبد الشاهق الذى كان فى الواقع ، وقد علاه معبد مردوخ ، كأنه برج حقيق واستحق أن يسمى برج بابل . وزرع فوق سقف القصر الملكى أنواعا كثيرة من النباتات الاستوائية الجميلة ترتفع على درجات الواحدة تلو الاخرى مكونة حديقة تأخذ بالألباب ، وكانت هذه الحديقة تطل على بوابة عشتر فزادتها جمالا وبهاء . وهناك فى ظلال النخيل وأشجار الرخس التى توحى بالترف والدعة كان الملك ينعم بساعة من ساعات الراحة مع نساء بلاطه ويمتع ناظريه بعظمة مدينته . وتلك الحدائق المدرجة فوق قصر نبوخدنصر ليست إلا حدائق بابل المعلقة التى ذاع صيتها بين أهل الغرب حتى عدها الاغريق إحدى عجائب الدنيا السبع . وهكذا أصبحت بابل مدينة ملأى بالمبانى الفخمة مثل مدن أشور ومصر .

وشهدت بلاد بابل مدينة كبيرة للمرة الاولى ، فقد وسع نبوخدنصر من نطاقها وأنشأ حولها الأسوار الضخمة المحصنة لحمايتها وتشمل هذه الاسوار سوراً يمتد من نهر دجلة إلى نهر الفرات عبر السهل المحصور بينهما . وفى نفس الوقت كان ليصل بين ضفتى نهر الفرات عند بابل قد أقام أقدم قنطرة عرفها الناس ، وليست تلك القوائم الحجرية المهدمة التى مازالت ممتدة فى بطن المجرى القديم لنهر الفرات إلا بقايا أقدم ما وصل إلينا من هندسة القناطر ، وكانت بابل نبوخدنصر هذه هى التى أدهشت هيرودوت بعجائبها بعد مضى قرن من الزمان ، تلك الدهشة التى نرى أثرها

فى الوصف الذى كتبه هيرودوت لهذه المدينة . « وتلك أيضاً هى بابل التى شاع ذكرها بين جميع الشعوب المسيحية ، على أنها المدينة الكبرى التى كانت مقرا لسبى العبرانيين ، ولم يبق من هذه الأمجاد التى ذاع صيتها بين العالمين سوى النذر اليسير ، وقد استمرت الأبحاث الأثرية الألمانية فى هذه المنطقة من ١٨٩٩ حتى ١٩١٧ بيد أنها لم تكشف النقاب إلا عن أطلال ضئيلة لجدران من الطوب اللبن ، وباستثناء بوابة عشتر لم يبق هناك سوى بعض الآثار البسيطة التى لا يمكن الاستدلال منها على عظمة بابل، ولا توحى بتلك الحياة المترفة السعيدة التى ازدهرت فى يوم من الأيام فى طرقاتها وميادينها العامة .

ويبدو أن الكلدانيين قد هضموا الحضارة البابلية واستساغوها ، كما فعل غيرهم من الغزاة الساميين الآخرين الذين وفدوا على هذا السهل القديم . فازدهرت التجارة وراجت الأعمال ، كما خطت الفنون والصناعات خطوات واسعة فى سبيل التقدم والنهوض ، وعظم الاهتمام بالدين والأدب ، وسجلت مؤلفاتهم على رقم مكتوبة بالمسمارية ، كما جرت العادة منذ القدم .

وتقدم العلم تقدماً ملحوظا فى فرع خاص من فروعه وهو الفلك . فقد واصل البابليون العادة القديمة فى محاولة قراءة المستقبل مستدلين بالأجرام السماوية . وكانوا ينظرون إلى الكواكب المعروفة إذ ذاك ، (عطارد ، والزهرة والمريخ ، والمشترى ، وزحل) على أنها القوى التى تتحكم فى مصائر البشر ، كما أن الآلهة البابلية الخمسة الرئيسية ، كانوا يمثلون هذه الكواكب السيارة الخمسة .

ووصلت إلينا أسماء هؤلاء الآلهة البابليين على أنها أسماء الكواكب الخمسة ، ولكنها تغيرت عندما وصلت إلى أوربا فترجموها إلى كلمات تلائم الحياة الرومانية ، فأصبح كوكب عشتر ، إلهة الحب ، هو فينوس (الزهرة) ، بينما بات كوكب الإله الاعظم مردوخ كوكب جوبيتر (المشترى) وهكذا دواليك ، وظل علم

الفلك القديم حياً إلى يومنا هذا ، فتخرج من أفواهنا جمل دون تفكير فى معناها مثل قولنا « نجمه السعيد » أو « عمل بجمة نحس »

ولقد ترك علم الفلك الكلدانى أثرا لا يمحى ، فى تقويمنا فيما يتعلق بالأسماء التى نطلقها على أيام الأسبوع . فهذه الكواكب الخمسة التى ذكرت منذ هنيهة بالإضافة إلى الشمس والقمر تكون مجموعة من سبعة أجرام سماوية ، كان كل منها إلها على جانب عظيم من الأهمية . ولما كانت العبادة الكلدانية قد انتشرت فى سوريا وذاعت . فقد جرت العادة أخيراً على العبادة والتغنى بمدح كل إله منها فى يوم خاص معين . وهكذا كانت عبادة كل إله من هذه الآلهة تتكرر بعد مرور سبعة أيام . ثم أطلق اسم الإله الذى يعبد فى يوم ما على ذلك اليوم نفسه ، وهكذا أصبح اليوم المكرس لعبادة الشمس ـ الأحد [يوم day ـ الشمس Sun] وبات اليوم الخاص بعبادة القمر ـ الاثنين [يوم day ـ القمر Mon] وهكذا حتى نهاية الأسبوع ، وعرف اليوم الأخير المخصص لعبادة زحل باسم يوم ساتورن وهو يوم السبت . ولما كانت اللغة الإنجليزية قد وصلت عن طريق الشعوب الشمالية فقد دخلت فيها بعض العناصر النورسية وظهرت فى أسماء بعض أيام الاسبوع مثل (Wodon's day, Wednesday) (أى يوم الاربعاء) أو (Thor's day, Thursday) (أى يوم الخميس) ومع هذا فإن هذه الاسماء جميعها ترجع إلى الآلهة البابلية القديمة التى ما زالت أسماؤها محفوظة بين الشعوب الغربية يذكرونها كلما نطقوا باسم أى يوم من أيام الاسبوع .

وهناك ما هو أهم من ذلك ، فإن خدمات علم الفلك البابلى لم تقف عند ذلك الحد . بل أن هؤلاء الناس لاحظوا السماء وكواكبها إلى أن أصبح ذلك العلم بينهم أعظم من مجرد معرفة الغيب . وإذا رجعنا بالتاريخ إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد فى عهد ملوك سومر وأكد نجد أن علماء الفلك فى ذلك الوقت لاحظوا خسوفا للقمر ، وهى حقيقة استفاد منها علماء الفلك المحدثين . بيد أن مثل هذه الملاحظات

كانت فى ذلك العهد البعيد أمر صدفة واتفاق كما أنها لم تكن على جانب كبير من الصحة . فضلا عن أنها كانت لا تجرى وفق نظام ثابت . وبمرور الزمن جرت العادة على التحقق من هذه الظواهر على نطاق أوسع ، حتى جاء عام ٧٤٧ ق.م فى عهد الملك البابلى نبوخذنصر ، حين أصبحت هذه الملاحظات تدون بصفة دائمة وتسجل بدقة بالغة وتحفظ وثائقها فى مكان خاص . ولسوء الحظ لم تبق لنا كل هذه المجموعة من السجلات ، وأقدم ما وصل إلينا منها حتى الآن هو رقيم يرجع تاريخه إلى عام ٥٦٨ ق.م وعليه أقدم المعلومات الفلكية الدقيقة . ونعلم الآن أن علماء الفلك الكلدانيين ظلوا يكتبون هذه الملاحظات فترة تربو على ثلاثمائة وستين سنة . وأصبحت هذه المجموعة أول سلسلة طويلة للأرصاد الفلكية ، وأول الوثائق ذات القيمة فى الدراسات الفلكية . وفى الواقع لم يقم علماء الفلك المحدثون بمثل هذه الارصاد الفلكية المستمرة خلال مثل هذه الفترة التى استغرقتها الارصاد البابلية [١] ومما هو جدير بالذكر أن هذا العمل العلمى استمر حتى بعد أن فقد الشعب الكلدانى استقلاله ووقع تحت سطوة الحكم الفارسى .

وهناك ما هو أعظم قدراً من جميع هذه المستندات الكثيرة والملاحظات ذلك هو استفادة علماء الفلك الكلدانيين منها قبيل عام ٥٠٠ ق . م وبعد أن مضى على جميع هذه الأرصاد بصفة مستمرة ما يقرب من المائتى والخمسين سنة ، استطاع أحد الفلكيين الكلدانيين ويدعى « نبو ـ ريمانو Nabu-rimannu » أن يستخدمها فى وضع جداول لتحركات الشمس والقمر ، سجل فيها حسابه للوقت الذى يستغرقه هذان الجرمان السماويان فى دورتيهما اليومية والشهرية والسنوية وهلم جرا . . . كما أرخ أيضا وقت كسوف الشمس وخسوف القمر ، وأوقات وقوع بعض الأحداث

---

١ ـ ان السلسلة الوحيدة التى تستغرق وقتا طويلا وكانت تقوم بصفة مستمرة لمثل هذه الارصاد والتى يمكن ان تقارن بسلسلة الكلدانيين الفلكية هى الارصاد الخاصة بمنتصف النهار فى جرينتش بانجلترا التى بدأت عام ١٧٥٠ م

الفلكية الهامة . لقد حسب طول السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوما ، وست ساعات وخمسين دقيقة ، وواحد واربعين ثانية . وهذا الجدول الزمنى الرائع الذى وضعه نبو ـ ريمانو كان أقدم بحث علمى ذا قيمة انشائية فى علم الفلك وحوى عظمة لم يصل إليها العقل البشرى من قبل .

وحسابات نبو ـ ريمانو قاربت الصواب إلى حد يدعو إلى الدهشة ولنضرب مثلا ببعض أشياء فى الدورة السنوية للشمس والقمر ، فإن الأرقام التى ذكرها فى جدوله لم تفرق إلا أقل من عشر ثوان خلال العام كله . بيد أنه بعد مضى ما يزيد قليلا عن قرن من الزمان ، وضع فلكى آخر كلدانى الأصل اسمه « كيدينو Kidinnu » مجموعة مشابهة من الجداول كانت اكثر دقة من سابقتها . فلم تزد أرقامه التى بين بها الوقت اللازم لدورة الشمس والقمر السنوية عن ثانية واحدة من الوقت الحقيق ، بل أن بعض حساباته لدورة الأجرام السماويه تعد اكثر دقة وصدقا من الأرقام التى كان يستخدمها فعلا الفلكيون المحدثون إلى عهد قريب . ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن الفلكى الكلدانى كان تحت تصرفه سجلات عن الأرصاد القمرية خلال فترة ثلاثمائة وستين سنة ، وهذا لم يتيسر لأى عالم فلكى محدث . وأثبت كيدينو أيضا أن هناك اختلافا بين طول السنة التى يقاس بين الاعتداليين ، وبين قياسها على أساس الوقت بين مرتين لاقتراب الأرض إلى أدنى بعد ممكن من الشمس[1]

ولقد آلت الابحاث الفلكية التى استغرقت قرنا من الزمان والتى قام بها الكلدانيون ، بالاضافة إلى حسابات نبو ـ ريمانو وكيدينو إلى الاغريق ، فانكبوا على دراسة مسائل هـــذين الفلكيين الكلدانيين اللذين أطلقوا عليهما اسمى : نبوريانس

---

١ ـ هذه الفكرة فى الواقع هى اكتشاف التغير البطىء فى درجة ميل محور الارض وهو التغير الذى يسمونه عادة قبل تسليم الاعتداليين

Naburianos وكيديناس Kidenas وعندما حاول المهندس الأغريقى ميتون Meton أن يدخل تقويما علميا فى أثينا اقتبس طول سنته من جداول نبو ـ ريمارنو ووصف أحد علماء الفلك المحدثين هـذين الفلكيين بقوله : « لهما كامل الحق أن يوضعا بين أعاظم الفلكيين » ، إن هذين الكلدانيين اللذين أطلعا البشرية لأول مرة فى التاريخ على نظام ثابت لعالم الكواكب وأصبحا مؤسسى علم الفلك ، يجدر بنا أن نذكرهم باحترام وأن تظل اسماؤهم خالدة بعد أن عفت ذكرى ملوك العالم القديم ومحاربوه .

وبينما نجد أن دولة الكلدانيين فاقت فى مضمار العلم كل ما جاءت به أشور ، ونجد أن فن المعمار فى بابل الكلدانية قد تأثر إلى حد بعيد بمؤثرات أشورية . بيدأن الكلدانيين قد تصوروا أنهم بعملهم هذا يعيدون مجد الحضارة التى قامت فى بابل أيام حمورابى ، إذ شغف الكتاب باصطناع أسلوب قديم فى الكتابة ، واستخدام تعبيرات عتيقة ، وكان الملوك يحفرون تحت أسس المعابد سنين طويلة ، بغية الحصول على الوثائق القديمة التى توضع فى أسس البناء وقواعده (مثل وثائق حجر الزاوية لدينا) والتى دفنها ملوك العصور الغابرة .

وإذا اعتمد شعب على الماضى فلا يعنى ذلك شيئاً سوى أنه فى طريق الاضمحلال، فعلى اثر موت بنوخدنصر (عام ٥٦١ ق . م) . الذى يعد عهده ذروة الحضارة الكلدانية، يبدو أن البلاد المتحضرة فى الشرق الأدنى قد فقدت الكثير من قوتها وفتوتها السابقتين ، وعجزت عن أن تسير إلى الأمام أو أن تسجل انتصارات حضارية جديدة ، أو تكتشف سبلا للمعرفة لم يصل إليها من عاشوا قبلهم ، مثلما كانت تفعله هذه الشعوب ، أى شعوب الشرق الأدنى، خلال ثلاثة عصور زاهرة على ضفاف النيل ،وثلاثة عصور أخرى مشابهة على ضفاف الرافدين . وفى الواقع

كانت قوة الشعوب السامية وقدرتها على التحكم فى العالم القديم وأهله على وشك الاقتراب من نهايتها ، وأوشكت أن تخلى السبيل أمام شعوب جديدة من العنصر الهندو الأوربى الذى رأينا بعضاً من أقوامه — حكام الميتانى — يظهرون فى الهلال الخصيب .

obeikandl.com